إشكالية الأدبية و مناهج النقد الجديد

*مولود بغورة

تهدف هذه الورقة الى تقديم صورة عن الأدبية بوصفها نظرية نقدية (نظرية المنهج الشكلي) وتبحث في علاقتها بالمناهج السياقية و بالمناهج النسقية و أثرها في النقد العربي. وهذه من الإشكاليات التي لم يلتفت إليها الدارسون كثيرا ولم تحظ بإجابة نهائية حاسمة- وان كان في مجال العلوم الإنسانية من غير الممكن أن نجد كلمة أخيرة في موضوع ما أو قضية من القضايا وخاصة النقدية فلقد طرحت إشكالية الأسلوب مثلا منذ العهود القديمة ومنذ أن بدأ التفكير في ماهية الأدب وطرق تعبيره اللغوية ومع ذلك مازلنا الى حد الآن لم نظفر بإجابة كاملة وشافية عن ماهية الأسلوب . تستطيع أن تقول الشيء نفسه بالنسبة الى كثير من المفاهيم النقدية والأدبية الأخرى كمفهوم النقد ذاته ، ومدى أهميته ، أو اتجاهاته .فقضية الأدبية إذن قضية شائكة ومفهومها إذن- مثل كثير من المفاهيم النقدية الأخرى- مفهوم زئبقي لم يوضح الى حد الآن توضيحا يشفي الغليل ، على الرغم من أن منزلة الأدبية هامة جدا في عالم الأدب والنقد الأدبي على الخصوص ، وعلى الرغم من محاولة ياكوبسون تحديد مفهومها ، فانه من النقاد من يراها في بنية النص الداخلية المكونة تكوينا خاصا ونوعيا وهذا هو الأصل ، ومنهم من يتوسع في مفهومها تسامحا لتشمل كل ماله صلة بالنص داخليا وخارجيا ، وهذا ما سيتضح بعد قليل وبعد طرحنا لهذه الإشكالية نعود الى الحديث عن ما حول الأدبية فنبدأ بلمحة سريعة عن أهمية الحركة النقدية عموما، فنشير الى أن المتأمل للحركة الأدبية في مختلف العصور والبيئات وعند كل الأمم لاشك انه يقف على مواكبة اللغة الواصفة لها (النقد)، والتي تحرص على وصف الأعمال الأدبية، وتقويمها ورسم الطرق التي تؤدي الى تطورها ، والإسهام في تقريبها من العقول، والقلوب، ثم فتح الطريق الى الإنشاء والإبداع لذوي المواهب والكفاءات. ولنا أمثلة كثيرة بهذا الصدد ، وبعودتنا الى تاريخ الأدب القديم نجد أن محاولة وضع قواعد للشعرية أو الأدبية بشكل جلي كانت من فيلسوف

*جامعة الجزائر 2

اليونان أرسطو الذي قدم دراسة للشعر في كتاب له تحت عنوان **فن الشعر** تناول فيه قضاياه مصنفا ،مبينا خصائصه،محددا مفاهيمه وأجناسه ووظائفه ، مما جعل كتابه هذا مرجعية أساسية في مختلف العصور والى يومنا هذا.

وهذا لا يعني أن العقول البشرية قد تجمدت أو أنها لم تطور نظرياتها ، بل بالعكس فقد عرفت الساحة النقدية أمواجا من الآراء والنظريات في الغرب قديما وحديثا وعند العرب قديما مع بعض الاجتهاد حديثا ، لان النقد العربي الى حد الآن مازال رهين الأخذ لا العطاء كما جاء في مقدمة كتاب أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث[1]

ومن الأمثلة التي يمكن أن تساق في هذا السياق عند العرب أن القرن الرابع الهجري قد شهد حركة نقدية عربية عارمة ، اتجهت وجهات مختلفة مرة الى النقد اللغوي ومرة الى النقد الفني ومرة الى النقد الداخلي النصي وأحيانا الى النقد الذي يتصل بعوامل خارج النص وهكذا... إلا أن تلك الجهود والمحاولات لم تمنهج ولم يكتب لها أن تطور فتصبح نظرية قائمة بذاتها توظف في معرفة النص الأدبي ، ولذلك كان النقد العربي الحديث متلهفا لمعرفة ما أنتجه الغرب للاستفادة منه في مجال الدرس النقدي غير انه وجد نفسه أحيانا في إشكالية الاختلاف بين التنظير الغربي والواقع الأدبي العربي ومع ذلك لم تقف هذه الإشكالية في طريقه بل ازداد رغبة في الاطلاع والنقل والترجمة وحسنا فعل ،لأن قضية النقل والاستفادة من تجارب الآخر العلمية والأدبية قضية قديمة وقد مر بها الأدب العربي بفتحه باب الترجمة من اليونانية مثلا، ومنها ترجمة فن الشعر لأرسطو، واستفادة قدامة بن جعفر من الفلسفة والمنطق اليوناني واضحة في كتابه نقد الشعر .

وإذا كان الأمر هكذا فان ما نراه اليوم من الإقبال على ثقافة الآخر أمر ايجابي ومشجع للغاية والنقد الأدبي العربي يأتي في طليعة الطامحين الى التأثر بالنقد الغربي ، الذي عرف اليوم – وبدون جدال – تطورا مذهلا ، فمنذ أرسطو الى مطلع النهضة لم يشهد النقد الأدبي ما شهده في القرن العشرين من تطور، حيث انفجر وسار بخطوات سريعة مواكبة لروح العصر ، فكان أن ظهرت عدة اتجاهات نقدية بعضها انطلق من العوامل الخارجية وبعضها اعتمد على بنية النص الداخلية.

وهكذا ظهرت مناهج نقدية علمية أذكر منها المنهج التاريخي العلمي والذي يربط الأدب بعوامله الخارجية كالبيئة والمجتمع والسياسة والعوامل المؤثرة فيه كالأيديولوجية والمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي وما الى ذلك وهذا خلال القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين ، وسوف نرى موقف الأدبية منها، كما سنرى موقفها من المناهج النسقية أو الحداثية ، مع العلم أن الانفجار النقدي الذي حدث بالفعل هو الذي عرفه القرن العشرون ، لعوامل منها التحولات الاجتماعية والتطورات العلمية والفكرية ، واللغوية خاصة تلك التي أسسها وأرساها العالم اللغوي السويسري دوسوسير (ت 1913)

ـ فما إن طلع علينا هذا العالم بكتابه دروس في اللسانيات العامة –و الذي نشره طلابه عام 1916(أي بعد وفاته بأربع سنوات)- بآرائه الجديدة في اللغويات ، وخروجه بها من النظريات التقليدية التي ترى دراسة اللغة من الزاوية التاريخية و الفيلولوجية ، حتى انبرى الدارسون في شتى التخصصات الى الاستفادة من هذه النظرية اللسانية الجديدة العلمية، فقد نصبت اللسانيات نفسها علما له منهجه وميدانه وأهدافه ، ثم فرقعت الحواجز بينها وبين العلوم الأخرى تأثرا وتأثيرا فهذا مفهوم النظام والعلاقة والإبلاغ يتناوله الإعلام التكويني ، وهذا علم النفس يستعير المنهج اللساني ... وهذا كلود لفي شتراس يستمد من اللسانيات منهجا في دراساته الانتروبولوجيا [2] أما النقد الأدبي فقد أسهم (جل النقاد الغربيين انطلاقا من الشكلانيين الى البنيويين في إقامة (علم الأدب) وإرساء مناهجه اعتمادا على اللسانيات خاصة)[3] ومن بين التجليات التأثرية باللسانيات تلك الثنائيات المتقابلة المبتكرة منها : ثنائية اللغة والكلام وثنائية الدال والمدلول وثنائية الوصفية والتاريخية أو الرمانية والآنية (التزامنية)، وكان لهذه الثنائيات تأثير كبير على وجهة النقد الأدبي، واتجاهاته ،وخاصة الاتجاه البنيوي والاتجاه الأسلوبي، وأول هذه التأثيرات انه لفت الاهتمام الى مسالة البنية ، والنظام والنسق فاللغة نظام ,اللغة نسق من العلامات والعلاقات ولفت الانتباه الى أن النص بنية لغوية وهذه يمكن دراستها وتحليلها تحليلا علميا ، كما انه بلفته الأذهان الى مسالة الوصفية قد اثر في الاتجاه الى النص في ذاته ولذاته، كما تدرس اللغة في ذاتها ولذاتها ، أضف الى كل هذا، التأثر بمصطلحات هذا العلم في ميدان النقد كاستعمال مصطلح التقابل والتماثل ، والبنية العميقة والبنية السطحية ، والتوازي ، والمحور الأفقي والمحور العمودي أو

التركيبي والاستبدالي مثلا ... انظر في هذا كتاب : اثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، لتوفيق الزيدي الذي تحدث عن التأثيرات اللسانية المختلفة بدءا من الأثر الصوتي ، الى الأثر التركيبي الى الأثر الأسلوبي والأثر الشكلي .

وإذا كان التيار النقدي الجديد في روسيا قد أطلق عليه مصطلح المنهج الشكلي ، أو نظرية المنهج الشكلي ، أو الشكلانية ، فان مدار هذا التيار أساسا هو الأدبية أي البحث عن خصوصيات الظاهرة الأدبية ، ولذلك فإننا هنا نربط بين الشكلانية والأدبية ونعتبرهما شيئا واحدا

فالشكلانية مدرسة نقدية هدفها البحث عن الادبية، نشأت في مرحلة تاريخية(1915 – 1930)حاسمة في المجتمع الروسي الذي كان يعيش اضطرابا في مختلف مجالات حياته، منها طغيان الفكر الإيديولوجي وطمس -في مجال الأدب- حرية الإبداع أي النظر إليه وفق ما يحققه من منافع فكرية تخدم الجوانب المختلفة في الحياة مما يجعل الأدب وسيلة لأهداف أخرى- وهذا طبعا- يبعد عن جوهر وماهية الأدب الحقيقية.

لقد "حاولت الشكلانية-إذن -التي نشأت في مرحلة الصراع الإيديولوجي أن تنتزع الأدب من براثن الايديولوجيا التي زعمت لنفسها حقوقا مقدسة في دراسة الأدب "[4] جاءت الشكلانية كرد فعل لما ساد النقد الأدبي من نظرات للنص الأدبي من خلال المؤثرات الخارجية التي أسهمت في إنتاجه أو أثرت فيه تأثيرا ما ، وهذه النظرات تمحورت في شكل مناهج نقدية منها المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي والتاريخي وقد أطلق عليها مصطلح المناهج السياقية مقابل المناهج النسقية التي تأتي الشكلاتية واحدة منها.

مبادئها : تقوم الشكلانية على مبادئ وأسس منها أنها لا تحبذ الرمزية في جانبها الفلسفي الصوفي في استعمال الكلمة، ولكنها متفقة معها في العناية بالجانب اللغوي والموسيقي في القصيدة [5]، وقد كانت معركة الشكليين بداية في فنية الشكل الأدبي أي معركة في أدبية الأدب من حيث هو فن باللغة ومن ثم استأثرت الأشكال الصوتية عندهم بتجارب وإحصاءات وكذا القافية باعتبارها نموذجا من نماذج التردد الصوتي والأصوات جميعها في بنية العمل الأدبي [6] ومن مبادئها[7] :

- اعتبار النص بنية لغوية مستقلة .
- الدراسة النقدية يجب أن تنصب على البنية الداخلية للنص

– الا يكون هناك فصل بين الشكل والمضمون إذ هما بنية عضوية واحدة.

–أن اللغة الأدبية تختلف عن اللغة العادية ، وهذا بالنظر الى سمات الأدبية التي تتمثل أساسا في الانزياح أو العدول- كما عرف في نقدنا القديم –أما على المستوى الإجرائي فان التحليل الشكلاني للنص الأدبي والذي تتجلى به الأدبية يقوم على المستويات التالية:

- المستوى الصوتي : بنية الأصوات ، والإيقاع والقافية
- المستوى الدلالي : ويتمثل في دراسة الوحدات الدلالية التي تشير إليها الكلمات مفردة
- مستوى البنية النحوية : أي مستوى الجمل والتراكيب
- المستوى الصوري الكلي الذي تتجسد به ومن خلاله وحدات الصور الجزئية ، وتشكيلات المواقف والأحداث والشخصيات، والعلاقة بين هذه المستويات علاقة تفاعل وظيفي بين الجزء والكل ومن ثم فان خصائص المعاني في اللغة الشعرية هي خصائص للنظام الذي تم به تنسيق هذه العناصر [8] والآن وبعد هذا الحديث عن أجواء الأدبية أي عن المدرسة الشكلانية ومقوماتها التي هي في الأساس مقومات الأدبية ، فانه جدير بنا أن نوسع الحديث عن مصطلح الأدبية الذي هو مدار الشكلانية وقلبها النابض إن لم نقل هو الشكلانية نفسها ، ونبين علاقته بالمناهج الأخرى .

يمكن تعريف الأدبية بوصفها نظرية جديدة في فهم الأدب، وبوصفها أيضا منهجا نقديا حديثا له مقوماته وأسسه ، بانها تمثل موضوع العلم الأدبي ، أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا " [9]و انها "غاية في ذاتها لا مجرد ذريعة لغايات خارجية " ويرى عبد السلام المسدي أن مدار الأدبية هو" تحديد هوية الخطاب الأدبي في بنيته ووظيفته مما يبرز النواميس المجردة التي تشترك فيها كل الآثار الأدبية "[10] فهي اذن علم عام يشمل كل الاثار الادبية السردية والشعرية ، و معناها تسليط الضوء على بنية النص الداخلية ، وان الهدف منها الوصول الى القوانين ألعامة الجوهرية التي تتحكم في كل الآثار الأدبية ، ومصطلح الادبية قد انبثق من الدراسات التي قام بها الشكلانيون الروس عندما حاولوا تأسيس دراسات علمية للشعرية أي أنهم اخذوا على عاتقهم مهمة علمنة الدراسة الأدبية "[11] ، وقد توصلوا الى طائفة من المصطلحات والنظريات التي ما تزال الى يومنا تحظى باهتمام الباحثين والدارسين في مختلف لغات العالم ، منها مصطلح الحوارية الذي مهد

الطريق لظهور مصطلح التناص لدى حوليا كريستيفا ، ومنها مصطلح البنية والنظام والنسق، ومنها مصطلح الأدبية ذاته وهو بيت القصيد هنا باعتبار انه يلقي بظلاله على كل المصطلحات السابقة الى يشملها ويكون عنوانا صالحا لها ، فتحت مظلة الأدبية نجد علما قائما بذاته للأدب، ومناحي علم الأدب واسعة بلا شك سعة الأدب نفسه ، ولكن الأدبية تحاول تأطير الأدب من الداخل تاطيرا علميا يشمل بنيته الجوهرية الداخلية ولا تقيم وزنا للمؤثرات الخارجية التي قد تلعب دورا في تأسيسه ، واذا كان مفهوم الأدبية كما حدده الشكلانيون قد انحصر في بنية النص اللغوية الداخلية لأنها الممكنة دراستها دراسة علمية وهذا مطمحها وهدفها الكفيل بإخراج الدراسات الأدبية مما لا يمت الى الأدب بصلة أساسية فيه ، وذلك لان تناول النص من الزاوية النفسية بغية معرفة نفسية الأديب ومعرفة حياته أو سيرته الذاتية ، أو اعتماد نظريات نفسية وإسقاطها على التحليل الأدبي للنصوص ليس هو الأدب ، وتناول الأدب من الزاوية الاجتماعية أيضا لا يلقي ضوءا حقيقيا يساعد على معرفة ماهية الأدب .

وهكذا كل دراسة لا تتوخى التعرف على سمات وخصائص الأدب في ذاته في نظر منظري الأدبية لا يعتد بها مادامت لا تكشف عن خصوصيات الخطاب الأدبي و لا تعالج ما يميزه كأدب مستقل عن غيره من العلوم والمعارف الإنسانية الأخرى فما هي اذن علاقة الأدبية بالمناهج السياقية ؟

إن موقف الأدبية من المناهج النقدية السياقية واضح منذ البداية ، فقد نشأت متأثرة بالوضعية التي آل إليها الأدب إذ كان بمثابة "ارض لا مالك لها"[12] كما وصفه أحد مؤسسي المنهج الشكلي أو أصحاب فكرة الأدبية التي هي موضوع ومنهج أيضا لهذه النظرية أو المنهج.- إذ كان الأدب موضوعا شائعا بين كل التوجهات والمناهج الأخرى المعتمدة على العلوم والمعارف الانسانية ، كل منها يدلي بنفسه فيه، ويستخدمه لأغراضه وأهدافه وبالتالي أصبح الادب وسيلة لغايات خارجة عنه ، الأمر الذي جعل البعض يربط بين النص وصاحبه ، وبينه وبين الفكر الإيديولوجي ، أو الفلسفي أو التاريخي، وجعل البعض يتساءل عن ماهية الأدب أين هي ؟ وعن وظيفته الحقيقية هل هي امتاعية أم نفعية أم هما معا ؟. وتحت ضغط الظروف الاجتماعية والنفسية والسياسية -في المجتمع الروسي- على الأدباء والنقاد والمثقفين عموما تولد هذا التيار الذي أطلق

عليه المنهج الشكلي الذي هو نظرية في الأدب مفادها البحث عما يجعل من النص نصا أدبيا أو الأدبية وانطلاقا من هنا وقفت الأدبية من المناهج السياقية المذكورة آنفا موقف الرفض بحجة أنها بعيدة عن جوهر الأدب وحقيقته ، فالمنهج التاريخي يعتمد على ربط الأدب بسياقه البيئي ويرى أن البيئة التي ينشأ فيها الأدب هي العامل الذي يمكن تفسيره به وكذلك العصر أو الزمن وكذلك العرق البشري وسانت بوف الفرنسي هو صاحب هذه النظرية التي لها الفضل في محاولة تفسير وتعليل الأدب علميا ولكن من سياقه الخارجي ، ولسنا بصدد مناقشة أهمية هذه النظرية اذ لا أحد يشك في جواها في التحليل الأدبي ولكننا فقط لنبين اختلافها عن الأدبية في مسالة البنية الداخلية والسياق الخارجي الذي له دور في صناعة النص لا ينكر .

أما المنهج النفسي فقد ازدهر بالفعل في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وخاصة على يد فرويد 1939 ، ويونج ...ولكنه أيضا بعيد عن ان يجلي لنا حقيقة او ماهية الأدب كما هو من منظور الشكلانية أو الأدبية ، ولذلك رفضت الشكلانية ربط الأدب بصاحبه ، ورفضت اتخاذه وسيلة لمعرفة صاحبه أو معرفة حياته ونفسيته ، أو معرفة النص من خلال أحوال منتجه النفسية.

وكذلك رأت الشكلانية أن تفسير الأدب انطلاقا من الأحوال الاجتماعية والسياسية و الإيديولوجية لا يلقي الضوء على الأدب ، لأنه يخرج به عن نطاقه وطبيعته ، وفلسفة وجوده، اذ لم يكن إطلاقا دور الأدب أن يقدم الأفكار التي تخدم قضية ما ف"الأدب لا يكون أدبا بما فيه من أفكار ، كما أن أدبية الأدب ليست منوطة بالقيمة الفكرية للنص ،بل بالتركيب اللغوي الذي يصوغه ويقدمه لنا الأديب "[13].

فالشعر عند هذه المدرسة" هو الفكر بواسطة الصور " [14] لا الأفكار ذاتها ، الا اذا جاءت هذه الأفكار في سياق الفن التعبيري كفن بالدرجة الأولى وليس كهدف يقصد إليه قصدا ولا شك أن هذا لا يتنافى وما يتعلق بالمحتوى ولا يتناقض معه ، لان المحتوى الفكري في الأدب أمر لا نقاش فيه ، ولا يمكن أن يكون الأدب خاليا من المضمون أيا كان نوعه اجتماعيا فلسفيا نفسيا أخلاقيا أو حتى علميا إنما هذا المضمون ينبغي أن يكون في إطار الأدب وان يكون مساوقا لأحكام الأدب أي لا يمكن الفصل بين شكل الأدب ومضمونه ، ومن ثم فالأولوية في الخطاب الأدبي هي لجانبه الجمالي الفني الذي به يكون أدبا ، ولذلك حاولت الأدبية أن تبحث عن

الخصائص الجوهرية المميزة للظاهرة الأدبية عن غيرها من الظواهر الأخرى وشنت حربا لا هوادة فيها عن المناهج السياقية .وكما تساءلنا عن علاقة الأدبية بالمناهج السياقية ، نتساءل الآن عن علاقتها بالمناهج النقدية المسايرة لها في الاتجاه او المقاربة لها والتي يمكن محورتها تحت عنوان المناهج النسقية ؟

إن كل منهج من المناهج الحديثة يرمي في أبعد أهدافه الى الكشف عن أدبية الخطاب ، وكل يراها من الزاوية التي ينطلق منها في تصوره للظاهرة الأدبية ومعنى هذا أننا نجد أنفسنا إزاء مفهوم واسع وشامل للأدبية او "علم الادب"، فكيف ذلك ؟

فالبنيوية ترى أن الأدبية تكمن في بنية النص ونسيجه الداخلي اللغوي الذي تحكمه علاقات متشابكة بين عناصره اللغوية بطريقة علمية منتظمة كل عنصر منها يؤثر ويتأثر ببقية العناصر الأخرى وأي تغير في العنصر يؤدي بالطبع الى تغير في البنية وقد شبهها بعضهم بلعبة الشطرنج إذ قيمة العنصر فيه تكمن في الوظيفة التي يؤديها و لا تكمن قيمته في ذاته ، وهكذا ومن هذا المنطلق فإن الأدبية تتمثل في تحليل البنية تحليلا علميا وتتمثل في اكتشاف العلاقات اللغوية المتشابكة المشكلة للنص ،وهذا طبعا منحى علمي ، والأدبية تقتضي في أساسها الوصول الى منهج علمي وخصائص ثابتة علمية تنطبق على كل أنواع الخطاب الأدبي المطلق المجرد ولا تهتم بالعمل أو الأثر الأدبي وإنما تهتم وتبحث في الخصائص المتعالية عن النص الواقع ، فهي اذن لا تبحث في الآثار الأدبية بقدر ما تبحث في الخصائص العامة التي تجعل من النص نصا أدبيا فهي مسالة تنظير يبحث عن علم عام للأدب مثل سائر علوم المعارف الإنسانية الأخرى ، وترى أن علم الأدب مستقل بمنهجه وخصائصه وغاياته التي هي كلها تنبعث من النص وتعود إليه .واذا كان للبنيوية علاقة بالادبية ، فان للأسلوبية ايضا نقاط تقاطع معها وقد تكون اكثر من البنيوية ذلك ان العنصر الأساسي الجامع بينهما هو تلك الخصائص المتفردة التي يتميز بها الأسلوب يقول جورج مولينيه هدف الأسلوبية كما يفهم حديثا هو دراسة الأدبية في مكوناتها الكلامية والشكلية "[15] والأسلوبية كما هو معروف موضوعها الأسلوب الذي "يرتبط بالعبارة وصياغة القول وهو ناشئ من اختيار الكلمات ومن ترتيبها و الملاءمة بينها بحسن التأليف ومن إيجاد التناسب بين غرض القول وكيفيته "[16] هذا هو موضوع الاسلوبية ، وان كانت للاسلوب تعاريف

اخرى نذكر بعضها للاستئناس ، منها تعريف يوفون الفرنسي الذي يقول : "الأسلوب هو الرجل " أي أن للأسلوب علاقة بصاحبه ، وهو صورة له ، وهكذا نجد تعار يف أخرى تسلط الضوء على تأثير الأسلوب في المتلقي وأخرى تسلط الضوء على البنية اللغوية للنص لترصد الاستعمالات غير العادية وغير المألوفة للغة، أي على اللغة في حالة انزياحها أو عدولها بالمصطلح القديم ، ومن هنا فالأدبية تكمن في هذه الخصائص المتميزة لاستعمال اللغة التي يتميز بها الأسلوب ، وان هذه الخصائص هي التي تجعل من النص أدبا .فالأدبية أو الشعرية إذن" تتولد في النص من جملة جهات ، ولكن الأهم فالأهم منها وكلها مهم ، هذا الاستخدام المخصوص للغة "[17] وهذا الاستخدام المخصوص للغة هو بمصطلح آخر الانحراف أو الانتهاك الذي يشكل بكل تجلياته ومظاهره الأدبية أو الشعرية "[18] يقول مولينيه : وبدقة اكبر تتعلق الأدبية التي نتفحصها هنا – من خلال نظرية جاكوبسون الى إحدى وظائف اللغة التي نقترح فصلها وهي الوظيفة الشعرية "[19] ومن هنا "فالأدبية تعطي اكبر الأهمية النسبية للقيم الإيحائية على حساب القيم الذاتية "[20] أي قيمة اللفظة الايحائية وليس قيمتها المباشرة .

ويذهب مولينيه الى حد يعتبر فيه أن للأسلوبية علاقة بالبرغماتية التي تعني علم الاستعمال اللغوي ، ولما كان الاسلوب استعمال ، وخاص ربط في نظر مولينية بالبرغماتية ، ومن ثم اذن فان للأدبية علاقة بالبرغماتية يقول " والحال أن المقاربة الأسلوبية هي مقاربة الأدبية مقاربة برغماتية "[21]

و اذا كان قد اشرنا سابقا الى مصطلح الشعرية واعتبرناه من اكثر المصطلحات النقدية رواجا وشهرة الى درجة تفوق مصطلح الادبية فانه من الجدير الان التعرف على العلاقة بينهما فما هي ؟

لاشك أن مصطلح الأدبية يتقاطع مع مصطلح الشعرية"، ذلك لان الشعرية أيضا من المصطلحات التي لها نفس المدلول ،وربما نفس الموضوع فجون كوهن في كتابه اللغة السامية يرى شيئا من التوافق وبعضا من الاختلاف في الدرجة بين المصطلحين يقول معرفا الشعرية : " وإذا احتذينا دائما نموذج أفلاطون وجاكوبسون في التعريف نقول : إن الشعرية هي ما يجعل من نص ما ، نصا شعريا ، وتعريف كهذا يترك الباب مفتوحا في أمر العلاقة بين الأدبية والشعرية وهل

الاختلاف بينهما اختلاف في الطبيعة أم هو اختلاف في الدرجة كما صنع فاليري عندما نظر الى الشعر باعتباره " الجوهر النشط" لكل إنتاج أدبي "[22] ،وكذلك جورج مولينيه يعتبر ما يدل عليه مصطلح الشعرية هو ما يدل عليه مصطلح الأدبية " إن كلمة شعري تدل على المعنى الذي أعطيناه لكلمة أدبي "[23] وقد عرفت الشعرية من قبل الناشطين في حلقة براغ اللسانية التي تعتبر امتدادا لأعمال الشكلانيين الروس بأنها نظرية داخلية أو "باطنية " للأدب والتي تسمح بوضع قوانين عامة تشمل كل الأعمال الأدبية بتنوعها [24] كما أوضحت هذه الحلقة مسالة اللغة الأدبية باعتبار وظيفتها ، "والشعرية ينبغي أن تجيب على سؤال ما الذي يجعل من الرسالة شفوية عملا فنيا " [25] فبالنظر الى مفهوم الأدبية هوانها علم الأدب ، والشعرية هي علم موضوعه الأدبية ندرك أنهما متلاحمين ووجهين لعملة واحدة كما يقال ، فالعلم الأدبي الذي هو الشعرية، موضوعه هو الأدبية ، والأدبية هي البحث عما يجعل من نص ما نصا أدبيا- كما سبقت الإشارة -ومن هنا نلاحظ التداخل بين المصطلحين يقول حسن ناظم " فما دامت الشعرية — ومن بين مهامها الأساسية — تستنبط الخصائص المجردة في الخطاب الأدبي ، وهذه الخصائص هي التي تضفي على الخطاب أدبيته ، أي أن الخصائص المجردة هذه هي — اختصارا — الأدبية ذاتها ، فالشعرية — اختصارا أيضا — تستنبط الأدبية في الخطاب ، وبهذا تكون علاقة الشعرية بالأدبية علاقة المنهج بالموضوع على التوالي " [26] أي بناء على هذا التصور فان الشعرية منهج و الأدبية موضوع لهذا المنهج أي الشعرية ، فالعلاقة بينهما علاقة منهج بموضوع .

وفي دراسة لقاسم الممني نجده يربط بين المصطلحين -الأدبية والشعرية- ويعتبرهما مترادفين يقول موضحا في نفس الوقت المفهوم الواسع للأدبية : تشكل أدبية النص أو شعريته ، عماده الذي لايكون إلا به ، وتشكل أدبية النص أو شعريته جوهره الذي يفرقه عما ليس بأدبي أو شعري ، ولكن على أن نفهم الأدبية أو الشعرية فهما رحبا يستوعب بحنو ما يتعصى على منطق التحليل العلمي استيعابه لما يتوافق معه ويقبله ، ويتقبل بعطف ما قبل النص وما بعده تقبله لما فيه أو لما في داخله ..."[27] وما نلاحظه هنا هو توسيعه لمفهوم الادبية ليشمل ما قبل النص وما بعده اضافة الى ما بداخله .

تغطية ذلك كله ، وقد يفرد سؤال الأدبية بدراسات مستقلة مستفيضة بل بدراسات تبين رحلة المصطلح و اشكالياته المطروحة على بساط البحث النقدي الغربي و العربي أيضا.

أما ما نستطيعه في هذا السياق الذي نحن فيه فهو أن نقترب من الدراسات التي اهتمت بالموضوع على مستوى الجامعات عندنا تدريسا وبحثا ، وفي حدود ما لاحظناه في عناوين البحوث ومن خلال التدريس والمناقشات .

إذا كانت إشكالية الأدبية قد دفعت الباحثين الغربيين الى عقد ملتقيات عالمية لطرح سؤال ما الأدبية؟ واختلفت الآراء ووجهات النظر حولها، ومن بين هذه الملتقيات ملتقى خاص بالأدبية عقد في كندا عام 1981طرحت فيه اشكالياتها وتساءل التفكير النقدي عن ماهيتها ؟ ومهما كانت النتائج فان النقد الأدبي استفاد بتوجيه الأذهان الى قضية من قضاياه الشائكة والصعبة، وبقيت الفكرة تدور في فلك النقد وكانت لها تجليات هنا وهناك تحت عناوين ومصطلحات مختلفة . إذا كان الامر هكذا فاننا أحسسنا اليوم بعض الفتور في استقبال المصطلح و أحسسنا ان مصطلحات ونظريات نقدية أخرى جاءت فنافسته المكانة ولكنها تضمنته ولم تلغه نهائيا فكانت الشعرية والإنشائية والأسلوبية والبنيوية وغيرها ، لكن فكرة الأدبية نفسها لم تتوقف اذ أصبحت تتصدر عناوين بعض الدراسات الأكاديمية ماجستير ودكتوراه مما يعني الالتفات إليها ، وما نراه هو أن يكون المصطلح أيضا آخذا طريقه الى مدرجات الجامعات فيحظى بدراسات وافية لسبب موضوعي وهو أهميته و قوة دلالته على : تسليطه الضوء على الجانب المهم في الأدب وهو جماليات لغته ، ثم من جهة أخرى سعته من منظور آخر حاليا ليشمل كل ما يشكل الأدب أو يسهم في تكوينه وبنائه من العوامل الخارجية الأخرى التي نفاها الشكلانيون فإذن المسالة هو الحفاظ على المصطلح من جهة والدعوة الى توسيع نطاقه حتى يستجيب لكل معطيات الظاهرة الأدبية المعقدة في شكلها وتشكلها . وهذا باعتبار أن كلمة أدب أوسع وأشمل من كلمة شعر مثلا الذي جاءت منه الشعرية .

والآن وبعد هذه الجولة في عالم قضية الادبية الشائكة ،فاننا نشير الى ان ما لاحظناه من الدراسات والبحوث الأكاديمية وغيرها في العالم العربي لم يكن في مستوى ما يدل عليه المصطلح وما دعا اليه من دراسة للادب على اسس علمية لغوية متميزة ، ومن الدراسات القليلة التي

وظفت الادبية واعتمدتها نظرية بحث نذكر مايلي : فقد طالعنا توفيق الزيدي بدراسة رائدة في هذا المجال ،جعلها خاصة بالتراث النقدي العربي تحت عنوان : "مفهوم الأدبية في التراث النقدي العربي الى نهاية القرن الرابع " ، واستطاع أن يكشف عن جوانب لافتة للنظر ، وان يلم شتات بعض التصورات النقدية لذلك العهد القديم تحت لواء واحد وهو الأدبية كما فهمها القدامى طبعا ولكن في ضوء النظرية الحديثة ،فقد عمل بالمفهوم الأصلي للمصطلح عندما أطلق في الدراسات الشكلانية وهو ما يجعل من نص ما نصا أدبيا ، ووسع نطاقه الى الأبعاد الخارجية المؤثرة في النصوص ، والى بعض التصورات مهما كان مستواها في النظر الى الخطاب الأدبي وبالخصوص الشعري ، ومعنى هذا أن الأدبية يمكن تصور معالمها بشكل أوسع مما وضعها فيه منظروها الغربيون.

وإذا كانت هذه الدراسة قد أتت بنتائج لا بأس بها في تصوري ، فإننا- وفي حدود علمنا-لا نجد بحوثا أخرى في مضمارها إلا القليل, منها دراسة للدكتور صلاح رزق تحت عنوان : أدبية النص ، محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي ، تحدث فيها عن مقومات الأدبية في النقد العربي القديم ، وركز على مفهوم الشعر وقضية الفظ والمعنى والقديم والجديد ...ثم تعرض الى المناهج الحديثة ، وتناول المناهج اللغوية ، ثم حلل البنية اللغوية الداخلية مركزا على الأصوات والألفاظ والتراكيب و الدلالة .

ومنها دراسة في الأدبية عند ابن رشيق القيرواني في شكل مقال ، ومنها بعض العناوين لكتب كأدبية الرحلة ،ومنها دراسة مقتضبة قام بها الدكتور جمعي من جامعة الجزائر تحت عنوان قراءات في التنظير الأدبي والتفكير الأسلوبي عند العرب مزج فيها بين تحليل مقومات الاسلوب و الأدبية في التراث النقدي . ومنها دراسة قام بها قاسم المومني في كتابه في قراءة النص ، تعرض فيها الى الأدبية في بعض الصفحات ووسع من مفهومها لتشمل كل أبعاد النص الداخلية و الخارجية ومع كل هذا تبقى اشكاليه الأدبية- لأنها تتعلق بجوهر الأدب- في حاجة الى مزيد من البحوث والدراسات والملتقيات .

هكذا يمكن القول إن للمدرسة الشكلانية اثرا كبيرا في" النظرة النقدية للأدب ، فقد أسست لمرحلة من البحث عن أشكال جديدة من الدراسة الأدبية ، حيث ينصب الاهتمام على كيفية

القول لا على ما يقال ، أي ينصب على الأشكال والبنيات بدل المحتويات "ويمكن القول ايضا إن الأدبية قد لعبت دورا حاسما في المناهج النقدية التي جاءت بعدها ، فقد سمحت بتطور المقاربة البنيوية، ودراسات علم السرد ، والنقد السيميائي[32]

والخلاصة التي نصل إليها بعد هذه الجولة في عالم التنظير الأدبي ، وفي مجال الأدبية بالذات أن الأدبية لمعت بداية في إطار الحركة اللغوية الشكلانية ،وجاءت لتبحث عن علم خاص بالأدب اصطلحت عليه بالأدبية ، ووجهت الانظار الى دراسته من الداخل ، لكن لم تلبث أن زاحمتها مصطلحات أخرى فتقاطعت معها ، وهي الآن وان لم تحظ بدراسات كافية مستقلة ، نراها في المناهج الأخرى التي تحاول تقديم تصور علمي للظاهرة الأدبية.

الإحالات

---

[1] توفيق الزيدي، *اثر اللسانيات في النقد العربي الحديث* ، الدار العربية للكتاب، ، 1984ص 11.
[2] مقدمة المرجع السابق، ص 9،10.
[3] نفسه ، ص10.
[4] انظر، فيكتور ايرليخ، *الشكلانية الروسية* ، ، ص : الغلاف.
[5] محمد فتوح أحمد، الشكلية ماذا يبقى منها ، *مجلة فصول* ،1981 ، ص161.
[6] المرجع نفسه، ص 163.
[7] انظر، *نظرية المنهج الشكلي*، ص 30وما بعدها.
[8] المرجع السابق، ص 163.
[9] Gérard Gengembre, .*Les grands courants de la critique littéraire*, Le Seuil. Paris, 1996, p. 29.
[10] *الحياة الثقافية*، تونس، ع 51، 1989، ص 18
[11] *الشكلانية الروسية* ، المقدمة، ص 5.
[12] نظرية المنهج الشكلي ، ص 35
[13] ، صلاح رزق، *أدبية النص ، محاولة لتاسيس منهج نقدي عربي* ، نقلا عن محاضرة سعد مصلوح، ص 55.
[14] نظرية المنهج الشكلي، ص 38 وانظر أيضا، بسام قطوس *المدخل إلى مناهج النقد المعاصر* ، ص 83.
[15] جورج مولينيه ، *الاسلوبية* ، ، ص 33.
[16] أحمد الجوة *من الانشائية إلى الدراسة الاسلوبية* ، ص 80
[17] قاسم المومني، في قراءة النص ، ص 22.
[18] نفسه، ص 23.
[19] الاسلوبية ، المرجع السابق، ص 86.
[20] نفسه، ص 185.
[21] نفسه ، ص 132.
[22] جون كوهن، *النظرية الشعرية ، (بناء لغة الشعر - اللغة العليا)*، تر: د . أحمد درويش ،ص260.
[23] نفسه، ص86.
[24] Gerard Gengembre, op. cit., p. 30.
[25] Idem, p.30/

26 حسن ناظم، *مفاهيم الشعرية*، ، ص 36

[27] *في قراءة النص*، ص21.

[28] نفسه، ص 22.

[29] *من الانشائية الى الدراسة الاسلوبية*، ص 171.

[30] نفسه ص 187

[31] نفسه ص 169

[32] *Les grands courants de la critique littéraire*, p. 29

المراجع

_إيرليخ فيكتور، *الشكلانية الروسية*، ترجمة الولي محمد، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 2000.

_الجوة أحمد، *من تلانشائية إلى الدراسة الأسلوبية*، قرطاج للنشر و التوزيع، تونس، ط 1، 2007.

_الخطيب إبراهيم (مترجم)، *نظرية المنهج الشكلي*، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، 1982.

_رزق صلاح، *أدبية النص، محاولة لتأسيس منهج نقدي عربي*، دار غريب للطباعة و النشر، القاهرة، 2002.

_الزبيدي توفيق، *مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع*، منشورات عيون، بيروت، ط 2، 1987.

_، *أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث*، الدار العربية للكتاب.

_طقوس بسّام، *المدخل إلى مناهج النقد المعاصر*، الإسكندرية، ط 1، 2006.

_فضل صلاح، *نظرية البنائية في النقد الأدبي*، دار الشروق، ط 1، 1998.

_كوهان جون، *النظرية الشعرية، اللغة العليا*، ترجمة أحمد درويش، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع،

_محمد فتوح أحمد، الشكلية ماذا بقي منها، *مجلة فصول*، ج 1، مج !، العدد 2، 1981.

_المسعودي حمادي، أدبية النص الشعري من خلال العمدة لابن رشيق، *مجلة الحياة الثقافية*، العدد 51، 1989.

_المومني قاسم، *في قراءة النص*، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الأردن، ط 1، 1999.

_ناظم حسن، *مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول و المنهج و المفاهيم*، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.

-Gengembre Gérard, *Les grands courants de la critique littéraire*, Le Seuil, Paris, 1996.